(بعد اسبوع)

مولاي . . . طلبت اليّ « جان » ان اكمل هذه الرسالة وأبعث بها اليك فقد علمت عنوانك ولا شك انك تود الوقوف على خبر منها . مسكينة « جان » ! انها تحبك حتى الموت وتزدري العالم كله من اجلك . مضى عليها يومان وهي في غيبوبة لا تشعر معها بشيء وتراني جالسة الى سريرها اذرف العبرات ولكنني أتجلد قدامها وأتعلل بالآمال . قلت لها اول البارحة ان الطبيب شديد الأمل بشفائكِ فابتسمت ابتسامة ازدراء وأدارت رأسها على وسادتها كأنها تقول « أنا أخبر بنفسي من الطبيب » حقاً لو تراها اليوم لأدهشك كم قد غيّرها الزمان . ليتك تحضر وتشاهدها فلعل رؤيتك تعيد اليها شيئاً من الحياة . . .

(بقلم سليم عبد الاحد) مدام ستابل

الحرب اليونانية العثمانية

موقعة دوموكوس (١)

يوم ١٧ مايو (ايار) سنة ١٨٩٧

عند الساعة الرابعة من صبيحة هذا النهار نبّه البوق الجنود العثمانيين ، فهبوا من رقادهم ، وعكفوا على الصلاة ، فكان لهم لغط في غدر ذلك الوادي

(١) لما انتشبت الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧ كان « بيار ميل » Pierre Mille الصحافي الفرنساوي مندوب جريدة « الديبا » Débats فيها . وقد كتب في وصف المعارك التي حدثت بين العثمانيين واليونانيين فصولا شائقة

الفسيح . ثم مالوا الى القهوة فكانوا يشربونها ، وهم يسرجون خيولهم ويتحدثون ، فتبدل لغطهم حينئذٍ بضوضاء شديدة كان يخالطها ضجيج الفرح لشعورهم بأنهم كانوا يتأهبون في تلك الساعة للحرب والكفاح . اما أنا فسقت جوادي اريد اللحاق بفرقتَي نشأت باشا وخيري باشا ، لاني كنت قد عقدت النيـة على ان لا أصف الا ما أراه بعيني ، ولا اكتب الا عن يقين

وكانت الى جانبنا الايمن طريق دوموكوس التي كنت مزمعاً ان اسلكها مجتازاً في ختامها تلة غير مرتفعة لا يكترث لها . على انه كان أمامنا في منحدر ذلك التل ممرٌ وَعِرٌ ، ناشز الصخور ،

كثير الثلوم كأن الفتى   اذا زلَّ يهوي على مبردِ

وكان هـذا الممر الضيق ينتهي من الجانب الآخر بفرسالا وهو أقرب الطرق الى ذلك السهل ، ولكنه ليس بالسبيل الوحيد اليهِ لأن

اخترنا منها وصفه لمركة « دوموكوس » فترجمناه بمناسبة شبوب الحرب الحاضرة فى طرابلس الغرب . والكاتب المذكور وُلد فى سنة ١٨٦٤ وكان مكاتباً لجريدة « الديبا » فى مداغسكر ابَّان الثورة التى شبَّت فى تلك الجزيرة سنة ١٨٩٦ - ثم انتدبته تلك الجريدة نفسها لمشى فى صفوف العثمانيين فى الحرب اليونانية العثمانية . ثم اختارته جريدة الطان Le Temps المشهورة رئيساً لتحرير القسم السياسى الخاص بالمستعمرات فاقام فى هـذه الوظيفة من سنة ١٩٠١ الى سنة ١٩١١ وقد نال من حكومته نشان اللجيون دونور من رتبة شفاليه Chevalier de la Légion d'Honneur وله كتاب مشهور عنوانه « من تساليا الى كريت » De Thessalie en Crète ومؤلفات اخرى تدل على مكانتـه وفضله فى عالم الادب

هنالك طريقاً أخرى كان يمكننا ان نسلكها عن جانبنا الشمالي الأقصى وهي ممتدة من « فاليستينون » على مقربةٍ من الشاطىء البحري الى « خاليروس » من حيث تسهل مهاجمة « دوموكوس » ولكن من ورائها لا من أمامها مواجهةً . وكانت خطة الجيش العثماني ان يسير نشأت باشا والحاج خيري باشا بكتيبتيهما الأولى والثانية في الطريق الأولى الوعرة فيهاجمان دوموكوس من الامام، وان يمشي ممدوح باشا وحقي باشا بفرقتيهما الثالثة والرابعة متتبعين الطريق الاخرى فيهاجمانها من الوراء بحيث يطوّق العثمانيون دوموكوس ويلتفون حولها . اما أنا فاتبعت الفصيلتين الهاجمتين من الامام :

وصعدنا الى التلّ واجتزناه مسرعين حتى اذا دخلنا في الممرّ الضيق أبصرنا مسيل ماء يحدر على الصخور الناتئة الى وادٍ، بينا هو يتسع أمامنا اذا بهِ يضيق كثيراً من الجنوب وقد اخضرّ زرعهُ وارتفعت فيهِ سنابل الشعير ارتفاعاً كثيراً عن الارض كانت تظهر لنا في وسطه ومن خلاله قبالة اطرافه العالية ، قرًى كبيرة تحيط بها تلك السهول الخضراء فتبين لنا كالجزُر في البحر . ومشى جنود خيري ونشأت في وسط تلك الزروع فاستولوا على أقرب القرى بدون ان يتكبدوا خسارة ما . وكان رجال المدفعية يطلقون القنابل من خلال سنابل الشعير العالية فلم نكن نستطيع ان نعلم قوة تأثيرها في العدو الا ساعة كانت تشب النار في مراميها ويصعد اللهيب الى العلاء ويبين لنا دخان القرى المحترقة كعمود منتصب في الفضاء . اما اليونانيون فاخذوا يطلقون علينا مدافعهم ولكننا

كنا نرى فرسانهم يحثون خيولهم هاربين مسرعين . ولم يكن يعبأ العثمانيون بنيران العدو بل كانوا يتقدمون الى الامام وهم لا يطلقون بنادقهم لان قنابل مدافعهم كانت تكفل لهم وحدها هزيمة اليونان

وكان هؤلاء قد تكاثر عددهم وتألبت جموعهم حينئذٍ ، غير ان المدافع العثمانية امطرتهم ناراً حامية فرأينا احدى كتائبهم قد نكصت على اعقابها وارتدت الى الوراء تريد الالتجاء الى دوموكوس . فكان ذلك بدء انهزامهم لاننا ما لبثنا ان رأينا فرقهم تتشتت عن شمالنا ، وتحرق القرى والدساكر في طريقها وهي فارّة لا تلوي على شيء . وتصاعد لهيب النار حينئذٍ الى عنان الجوّ ، وتلبد الدخان في الفضاء فذعرت الطير في اوكارها ، وروّعت اللقالق في اعشاشها فكنا نراها هاربة خائفة تمرّ فوق رؤوسنا مرور السهام أطلقت عن القوس

وكان العثمانيون يتقدمون بسرعة الى مواقف العدوّ حتى اصبحنا نرى الجيشين مرأى العين . وحينئذٍ انفصلت الفرقتان العثمانيتان فمشت فرقة نشأت باشا بقدم ثابتة في وسط السهل الى شبه تلة صخرية عالية ، وسارت فرقة الحاج خيري باشا الى الشمال . وكان اليونانيون قد تحصنوا خلف قمم من التراب أقاموها للاحتماء بها فاخذوا يطلقون نيرانهم من ورائها . ووقعت في تلك الساعة قنبلة على قيد خطوتين منا ولكنها لم تنفجر ولم تزحزح الكولونل « بوي دلاتور » رئيس البعثة السويسرية الحربية الذي كان واقفاً الى جانبي فالتفت اليّ وتبسم ابتساماً معنوياً ، ثم تناول علبة « طون » من جرابه وأشار اليّ فتقدمت منهُ واقتسمناها

معاً . وهي منة له عليّ لن انساها أبد الدهر . ثم صعدنا الى التلة الصغيرة فاشرفنا منها على العسكرين وقد التقيا وجهاً لوجه . ولم تكن الا دقائق قليلة حتى شبت بينهما نيران معركة طاحنة . وكنا نسمع في الوقت نفسه دوي البارود ، ونرى تفجر القنابل من الجانب الآخر حيث كان قد سار خيري باشا برجاله

ولما طال أمد المعركة وقد صمت آذاننا ، وغشا الدخان عيوننا أبصرنا فريقاً من المشاة العثمانيين هاجماً على قلب العسكر اليوناني وقد أخذ اليونانيون يصوبون رصاصهم عليهِ وهو سائر غير مكترث . فما هي الاّ هنيهة حتى تزحزح اليونان عن مراكزهم وارتدوا الى الوراء . وكانت طلقات البنادق المتواصلة حينئذٍ أشبه بقرقعة الآلة الكاتبة تكتب عليها يد خفيفة رشيقة

وحدقنا بابصارنا الى جهة اليونانيين فرأينا احدى الفرق قد غادرت مركزها في القلب حيث هجم العثمانيون وولت الادبار منهزمة الى جهة دوموكوس . ولكن ضابطاً يونانياً خف اليها فردها الى مواقفها

اما فرقة الحاج خيري باشا فاننا لم نرها ولم نعرف اخبارها الا حين صرنا نرى اليونانيين يفرّون من قدامها من الجانب الايسر المحاذي للتل الذي كنا واقفين عليه . فتحققنا حينئذٍ ان النصر تمّ او كاد يتمّ للعثمانيين

وفي تلك الساعة وصلت الى ساحة القتال فرقتان لانجاد العثمانيين أرسلهما أدهم باشا فانضمتا الى خيري باشا وعززتا موقفه

وأبصرت ادهم باشا حينئذٍ راكباً جواداً صغيراً هزيلاً وهو رجل

ذكيُّ الفؤاد رزين بارد الطبع ، وقد تقدم منهُ احد الضباط طالباً اليهِ أن يصدر أوامره بالهجوم على الاعداء ولكنهُ لم يجاوبه بل تبسم ثم التفت الى ضابطين واقفين حذاءه فاسرَّ اليهما كلمتين فهمنا بعدئذٍ معناهما اذ أبصرنا فرقتي ممدوح باشا وحقي باشا قد ظهرتا للعيان وأتمتا حركة الالتفاف حول دوموكوس

وأصبح اليونانيون حينئذٍ تحت رحمة العثمانيين اذ طوَّقهم هؤلاء من الجهات الأربع . فلما تبينا هذه الحقيقة تقدم الملحق العسكري الالماني من أدهم باشا وقال له : « انك تستطيع يا حضرة القائد أن توجد في هذا المكان معركة « سيدان » Sedan أخرى فان اليونانيين كما ترى قد أُخذوا في الشبكة ولن يستطيعوا الانفلات منها » فسكت ادهم باشا ولم يكترث لما قيل له . فقلت في نفسي حينئذٍ ان هذه الحرب انما تجمع بين السياسة والحرب معاً . فالعثمانيون كما يخيَّل اليَّ لا يريدون التمادي في القساوة والضغط على اليونانيين لكيلا يثور عليهم الرأي العام في اوروبا والاَّ لكانوا قادرين ان يفعلوا اضعاف ما فعلوه

***

ولما أصبح الصباح التالي كان العثمانيون قد بلغوا منتهى آمالهم . وقد أشرفت طلائعهم على « لاميا » بلاد اليونان الحقيقية ، ووطنهم الاصلي القديم . وكان الألبانيون اولئك الشجعان الصناديد لا يزالون يطلقون بنادقهم على العدو الذي كان قد ربط في رؤوس بنادقهِ المناديل البيضاء كأنما كان يريد أن يقول : « رحماكم فان الصلح قد تمَّ »

هكذا انقضت هذه المعركة ، بل هكذا انقضت هذه الحرب التي لم تكن الاّ أشبه شيء بمأساة تمثيليـة مثّلت سهول فرسالا آخر فصولها المحزنة

بيار ميل

مكاتب جريدة « الدينا » الحربي

وبعد هذه التفاصيل المنقولة عن شاهد عياني نروي الابيات الآتية لشوقي بك من قصيدته العصماء التي وصف فيها تلك الحرب أبلغ وصف ، قال في الهزيمة :

ونادى منادٍ للهزيمـة في الملا		وان منادي الترك يدنو ويقربُ
فأعرض عن قواده الجند شارداً		وعلّمهُ قواده كيف يهربُ
وطـار الاهالي نافرين الى الفلا		مئين وآلافاً تهيم وتسربُ
نجوا بالنفوس الذاهلات وما نجوا		بغـير يدٍ صفرٍ واخرى تقلبُ
يسير على اشلاء والده الفتى		وينسى هناك المرضع الام والابُ
وتمضي السرايا واطئاتٍ بخيلها		أرامل تبكي او ثواكل تنـدب
فمن راجلٍ تهوي السنون برجله		ومن فارس تمشي النساء ويركبُ
يكادون من ذعرٍ تفرّ ديارهم		وتنجو الرواسي لو حواهن مشعبُ
يـكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى		ويقضم بعض الارض بعضاً ويقضب
تـكاد تمسّ الارضَ مساً نعـالهم		ولو وجدوا سبلاً الى الجوّ نكّبوا
هزيمة من لا هازم يستحثهُ		ولا طاردٌ يدعو لذاك ويوجبُ